

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى هدانا للحق وإلى الطريق المستقيم، وأوعز لنا بالقيام بهذا العمل - موسوعة الأشهر الدينية- الذى نأمل أن يستفيد منه ولو قلة قليلة من أبناء أمتنا الإسلامية..

وسنتناول فى هذا الجزء من موسوعتنا موضوعاً مهماً وهو "الخطابة" وخاصة الإسلامية منها، وأيضاً "أشهر خطب الرسول ﷺ والصحابة - رضوان الله عليهم- وبعض النماذج من خطب التابعين" وذلك لأهمية موضوع "الخطابة" حيث إنها تلعب دوراً كبيراً فى إلهاب مشاعر الجماهير إذا كانت حماسية، أو تنقيف وإشاعة الوعى الدينى وإيقاظ الضمير إذا كانت دينية، كما أنها ممكن أن تكون خطباً أدبية أو اجتماعية أو ... أو...

وبصفة عامة الخطابة فن من فنون الكلام، يهدف لإلقاء الكلام على جمهور الناس لاستمالتهم وإقناعهم، وقد اعتبرها الفلاسفة علماً له أصول وقوانين.. وهذا العلم لا بد أن يعنى بدراسة طرق التأثير ووسائل الإقناع.. ولا بد لمن يجيد هذا العلم - أى الخطيب- أن تتوافر فيه عدة أمور: منها الذكاء الفطرى وسرعة البديهة والثقافة والصوت المؤثر والهيئة واختيار الخطب المناسبة والتحضير لها جيداً، ومراعاة سن وظروف وثقافة المستمعين حتى يستطيع استمالتهم له، ويروى ظمأهم ويمتع روحهم، ويسمو بعقولهم، ويزكى جوارحهم.

وسنسهب بعض الشيء فى تناول هذا الموضوع، حيث إننا سنتناول الخطابة من ناحية كيفية إعداد الخطبة والمصادر اللازمة لذلك، وما يجب أن يكون عليه الخطيب وتطور الخطابة... وما إلى ذلك.

وسنختتم هذا الجزء من موسوعتنا بنماذج لخطب الهادى الأمين - عليه صلوات الله وسلامه- وصحابته - رضوان الله عليهم - كما سبق وقلنا- ونتمنى أن نوفق، وعلى الله قصد السبيل .

المؤلف

متولى الجرجاوى



الباب الأول

الخطابة



الباب الأول

التعريف بالخطابة

الخطابة وسيلة مهمة للوصول إلى كثير من الأمور التي يحتاج إليها البشر في حياتهم. ومن أهمها وأعظمها "الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى".

لذا اهتم الباحثون، والمفكرون، والدعاة إلى الله عز وجل ببيان تعريفها، وأصولها، ومقوماتها، وتطورها، والنماذج الصالحة من الخطباء الذين تركوا أثرا طيبا في مجتمعاتهم وكانوا قدوة لغيرهم.

وقد عرف الحكماء الخطابة بأنها: مجموعة قوانين يقندر بها على الإقناع الممكن في أي موضوع يراد.

والإقناع عبارة عن: حمل السامع على التسليم بصحة المقول وصواب الفعل أو الترك^(١).

وعرفها ابن رشد بأنها: "قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأشياء"^(٢).

كما عرفها بعض المحدثين بأنها: "فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالاته"^(٣).

وعرفها كذلك غير هؤلاء بأنها: "فن من فنون الكلام يقصد به التأثير في الجمهور عن طريق السمع والبصر معاً"^(٤)..

إلى آخر هذه التعريفات المتعددة - قديما وحديثا - للخطابة، والتي تهدف كلها إلى معرفة فن إلقاء الكلام على جمهور من الناس سواء أكان ارتجالا أو تحضيريا.. وهذا بالطبع لن يكون إلا بالابتكار المبنى على التفكير السليم، والتنسيق المبنى على الترتيب المنطقي الذي لا يصطدم مع العقل، والتعبير المبنى على توضيح الأفكار.

(١) مذكرة "الخطابة" للشيخ علي محفوظ ص ١٠ - الطبعة الثالثة.

(٢) تلخيص الخطابة لابن رشد - تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي ص ١٥.

(٣) فن الخطابة للدكتور أحمد الحوفي ص ٧ - طبعة نهضة مصر بالقاهرة.

(٤) الخطابة في الإسلام.. للدكتور جمعة الخولي، والدكتور مصلح بيومي.

وصفوة القول- كما قال الشيخ على محفوظ- إن الفلاسفة اعتبروا الخطابة علما له أصول وقوانين تمكن الدارس لها من التأثير بالكلام، وتعرفه وسائل الإقناع بالخطاب في أى غرض من الأغراض الكلامية، وأنه يعنى بدراسة طرق التأثير، ووسائل الإقناع، وما يلزم أن يكون عليه الخطيب من صفات وآداب، وما ينبغى أن تكون عليه أساليب الخطبة، وترتيب أجزائها، وهو بهذا نبراس يهتدى، ومصباح ينير السبيل أمام من عنده استعداد للخطابة ليربى ملكته، وينمى استعداده..^(١)

مما سبق يتبين لنا ماهية الخطابة، فمن هو الخطيب إذا ؟

والجواب: هو هذا الإنسان الذى يجمع إلى ذكائه الفطرى، واستعداده الذاتى ثروة هائلة من الثقافات المتعددة التى يستطيع بها خوض أى معركة من المعارك الكلامية المختلفة. لأنه بهذا لديه القدرة أن يجعل لكل مقام مقالا.

وعلى هذا فللخطابة -خاصة الدينية- أثرها الكبير، وخطرها العظيم فى المجتمع، من أجل هذا جعلها البارى تبارك وتعالى شعيرة من شعائر الإسلام:

١- فى كل يوم جمعة من كل أسبوع يحتشد المسلمون فى بيت من بيوت الله تعالى ليستمعوا إلى الخطيب وهو يلقي الخطبة عن موضوع من الموضوعات المهمة التى تشغل بال المسلمين، فيستمعون إليه بإنصات فى سكونة وخشوع.

ولاعجب فى ذلك فقد قال تعالى لجماهير المسلمين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَوَدَّعْتُمْ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٢)، وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة ثم راح فى الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح فى الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشا أقرن، ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر"^(٣)..

(٢) سورة الجمعة الآية ٩.

(١) الخطابة للشيخ على محفوظ ص ١١-١٢.

(٣) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٦٦ طبعة عيسى البابى الحلبي.

من أجل ذلك نجد أن إمام المسجد الذى يحترم جمهوره يقوم بنصيب كبير فى تنقيف الأمة، والأخذ بيدها إلى ما فيه رقيها وسعادتها فى الدارين.

٢- وفى موسم الحج يلتقى عدد ضخم من المسلمين من شتى بقاع الأرض على جبل عرفات بأمر من الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (١) فيستمعون إلى الخطيب وهو يلقي خطبته المهمة على منبر مسجد نمرة. يذكرهم فيها بماضيهم وما يجب أن يكونوا عليه فى حاضرهم ومستقبلهم كما فعل النبي ﷺ فى خطبة الوداع.

٣- وفى الأعياد الإسلامية يهرع المسلمون مبكرين إلى الصحراء أو فى أى مكان متسع لأداء صلاة العيد (عيد الفطر أو عيد الأضحى)، وبعد الصلاة يستمعون إلى الخطيب وهو يذكر بأحكام العيد وما يجب عليهم نحوه ليعيشوا آمنين مطمئنين مسرورين بنعم الله عليهم.

٤- وفى كل مناسبة طيبة كليلة القدر المباركة وليلة الإسراء والمعراج، وحادث الهجرة النبوية، ومولد الرسول ﷺ يجتمع المسلمون فى بيت من بيوت الله فيستمعون إلى من يذكرهم بهذه الذكريات العظيمة التى تكون سببا فى تمسكهم بدينهم والنهوض بأممتهم فى هذه الحياة.. والمثل الأعلى - دائما - للخطابة الدينية هو النبي ﷺ الذى كان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش يقول: صباحكم ومساكم.. إلى آخر ما ورد عن النبي ﷺ وما سنبيته بعد ذلك إن شاء الله بشيء من التفصيل.

أصول الخطابة ومقوماتها

عرفنا من التعريفات الماضية عن الخطابة بأنها: فن من فنون الكلام يقصد به التأثير فى الجمهور عن طريق السمع والبصر معا..

(١) فمما يدخل أثره عن طريق السمع :

(ج) الصوت

(ب) الإلقاء

(أ) الأسلوب

(٢) ومما يدخل أثره عن طريق البصر :

(أ) الوقفة والهيئة (ب) الحركة والملامح.

وتلك هي مقومات هذا الفن.. ولنتكلم عن كل واحد من هذه المقومات:
أولاً: الأسلوب:

يقولون إن من البيان لسحرا. والخطيب الحصيف يمكنه أن يسحر الأفتدة بقوة فكرته وحسن إلقائه وعذوبة كلامه وسهولة عرضه ووضوح فكرته.

والخطيب لا يصل إلى الأذهان إلا عن طريق الأذان. وللأذان ذوق في الجمال لا يد من مراعاته ومرضاته. أي أن الخطابة فن الاتصال بالقلوب عن طريق الأذان. فالخطيب الحاذق هو الذي يصوغ خطبته في أسلوب تتخير له الألفاظ المتسقة والجمل المتراسة والفقرات المترابطة والأساليب السهلة. والافتتان في تنويع الأسلوب والقصد فيه. ولذلك يحسن أن يكون الخطيب ملما بثروة كبيرة من آداب اللغة ومروياتها وأساليبها وألفاظها. وعلى الخطيب أن يتجنب التكرار إذ هو عيب مخل في الخطبة. والكلام لا يقاس بطوله. بل بمقدار فائدته، ولقد كان ﷺ أقل الناس كلاما وكانت خطبته مختصرة موجزة. والمروى من خطبه صلوات الله وسلامه عليه قليل ومختصر ولكن فائدته عظيمة.

قال النووي: "يستحب كون الخطبة فصيحة بليغة مرتبة مبينة من غير تمطيط ولا تقصير، ولا تكون ألفاظا ملفقة فإنها لاتقع في النفوس موقعا كاملا. ولا تكون وحشية نافرة فإنها لا تحصل المقصود منها بل يختار ألفاظا سهلة جزلة مفهومة".

وقال ابن القيم: "وكذلك كانت خطبة الرسول ﷺ إنما هي تقرير لأصول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وذكر الجنة والنار، وما أعد الله لأولياته وأهل طاعته. وما أعد لأعدائه وأهل معصيته، فيملأ القلوب من خطبته إيمانا وتوحيدا ومعرفة بالله وآلائه لا كخطب غيره التي تتناول أمورا مشتركة بين الخلائق، أي ضعيفة الصلة بالدين فاقدة لتوجيهاته الواجبة. كما سنعرف مزيدا من التفصيل في هذا الموضوع عند الكلام على هدى الرسول ﷺ في خطبه.

وعلى الخطيب أن يكون ملماً بأداب اللغة وطرائف المرويات، ذواقة للشعر والنثر حتى يمكنه ذلك من التعبير عما في ضميره ونقل ما في نفسه إلى نفوس الآخرين بعبارة رفيقة وأداء مستحب.

ونضع أمام الخطيب هذه الأمور لكي يراعيها في تخير الأسلوب:

- توخي الأساليب السهلة.
- تنوع الأسلوب.
- تخير الألفاظ .
- الاعتماد على العاطفة والشعور. بمعنى أن يكون الخطيب يقظ القلب جيشا المشاعر صادق اللهجة.

وكلما كان الخطيب مخلصا في قوله معتقدا صدق كلامه، كلما اتخذ سبيله إلى القلوب. فإن الكلام إذا خرج من القلب وقع في القلب، وإذا خرج من اللسان لم يجاوز الأذان.

ثانيا: الإلقاء:

لحسن الإلقاء أثر عظيم في نجاح الخطبة، ولذلك فهو من أجل ما ينبغي اهتمام الخطيب به. فقد تسمع خطبتين ذات موضوع واحد إلا أنه يجذب أحدهما انتباهك ويثير إعجابك بحسن إلقائه وجمال عرضه. وقد يكون أسلوب الخطبة نازلا عن مقام البلاغة فيرفعه الخطيب القادر بفصاحة منطقته وعضوبة إلقائه، فيثير السامع ويلهبه بجمال إلقائه، عن ضعف إنشائه.

والإلقاء الحسن يتمثل في الوضوح والطلاقة وتمثيل المعاني والعواطف وذلك بتغيير اللهجة، بتنوع الصوت، فيهدأ الخطيب ويبطئ ويسرع ويغضب ويعجب. ويسأل ويجيب. وكل ذلك في استقامة لغة وسلامة منطق وبعد عن اللكنة وما يتبعه من كثرة اللججة والتلثم والالتجاء إلى جمل الاستعانة كتكرير أيها السادة مثلا... وهكذا.

وهكذا لا يبلغ الخطيب غايته إلا إذا كان حسن الإلقاء، جميل الأداء، قوى الروح ليواجه السامعين بالحق الواضح والذكر المبين.

ثالثاً: الصوت:

من الصفات الحسية اللازمة للخطيب الصوت الجهورى والعناية برفعه أو خفضه فى المواضيع المختلفة، إذ هو طريق الفكرة إلى الأذان، فلا بد أن يكون جيداً حلو النغمة، صافى الرنين، خالص النبرات. ويجب على الخطيب أن يعنى به ويقف على قوة ارتفاعه ومدى اتساعه حتى لا يكلفه فوق طاقته فيضحل ويتهدج، ويحسن مع ذلك أن يبدأ به فى انخفاض وتأن ثم برفعه رويدا رويدا حتى يبلغ به أقصى قوته، ثم يردده بين الصعود والهبوط مغيرا فى ميزاته ونغماته ووقفاته تبعا للمعنى الذى يؤديه محاذرا ألا يخرج به عن مستواه.

رابعاً: الوقفة والهيئة:

والمقصود بالوقفة: أن يكون الخطيب ثابت الجنان، شجاع القلب لا يحمل شيئاً من الجبن والخور ولا يهاب أحداً إلا الله. متمالك الأعصاب. هادئ الأنفاس مستقيم الصوت.

والمقصود بالهيئة: وضاعة الطلعة وحسن الهدام وجمال البزة. وإن كانت هذه صفات كمالية قد يغنى عنها جمال الأسلوب وحسن الإلقاء، إلا أن هذه أمور يجب العناية بها. ذلك أن الخطيب مطمح أنظار الناس ومحل تقديرهم، فإذا كان حسن المنظر جميل الهدام كان موضع تقدير ومحل احترام، وإن كان على العكس من ذلك فإنه قد يلقى إعراضاً ونفوراً. وقد قيل إن معاوية لما رأى النخار مرتديا عباءة رثة أنكروا مكانه وهيأته حتى اضطر النخار إلى أن يقول: "إن العباة لا تكلمك ولكن يكلمك من فيها"^(١).

فالواجب على الخطيب أن يكون وجيهاً كى يوقره الكبير ويهابه الصغير، ويأخذ كلامه الطريق إلى القلوب.

والمقصود بالوجاهة: ألا يببالغ العالم نفسه فى مظهره أو فى سيرته، بل يتحفظ ويجعل هيأته مقبولة بين الناس. قال رجل لعبد الله بن عمر: "ما ألبس"، قال: "ألبس ما لا يعيبك عليه العلماء ولا يزدريك فيه السفهاء". أى أن ملابس الخطيب يجب أن تكون بحيث لا يحتقره فيها الرعا، ولا يظن غيرهم أنه يتكلف فى

(١) الخطابة فى الإسلام... للدكتور جمعة الخولى والدكتور مصلح بيومى.

تجمله وزينته. ومن كلام الإمام عبد الرحمن بن الجوزي: "على أهل العلم أن يظهرُوا مروءاتهم في ثيابهم إكراما للعلم وإجلالا له". ويقول الإمام مالك: "التواضع في التقى والدين لا في اللباس".

خامسا: الحركة والملامح:

وكلاهما مساعدا ويقصد بهما الإشارات التي يمكن أن تشارك مع الكلمات والنبرات، كإشارات اليد التي تساعد على تثبيت الكلمات في النفس، لأن الكلام إذا كان طريقه الأذن، فالإشارة تشرك العين مع الأذن في الإحاطة بالمعنى وتصوره. ولذلك كانت الحركات عنصرا من عناصر العمل الروائي، وهي كذلك جزء من أجزاء الفن الخطابي لنفعها وإفادتها.

فاستعمال إشارة اليد تؤكد المعنى، وأسرار الوجه تكشف عن أسرار الضمير والخطيب يستطيع أن يعبر بملامح وجهه عن اللذة والألم والرضا والسخط والنفور والميل والسرور والحزن. وبالعيون عن العواطف المختلفة فيرفعها إلى السماء في الألم الشديد والدعاء، ويخفضها إلى الأرض في التفكير والحيرة والخشوع والحياء، أو يفتحها عند الاندهاش والإعجاب، ويطبقها عند التواضع والمسكنة.. وهكذا.

يروى التاريخ القديم عن مصعب بن الزبير أنه باستعمال الإشارة اليدوية أثناء إلقائه لبعض آيات القرآن الكريم رسم في نفوس السامعين كل الذكريات الدينية التي تشير إليها هذه الآيات وكأنما يحمل هذه النفوس حملا بإشارته إلى المواطن التي تعنيها هذه الآيات، فيجد السامع نفسه في موكب من الذكريات التي تكاد الإشارة أن تجسدها له تجسيدا.

إن مصعب بن الزبير قدم العراق فقال: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿طَسَّرَ * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ * تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مَوْسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّنَّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِعُ أَشْيَاءَهُمْ وَيَسْتَخِي، نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١﴾ وأشار بيده نحو الشام إلى حيث نشأ موسى عليه السلام - وإلى حيث هاجر بقومه بعدما كان من أمر فرعون، فكانه أشار

إلى مسرح تلك الحوادث فارتسمت في أذهان السامعين بعد أن مرت عليها منات الأجيال.

ثم استطرد مصعب بن الزبير يقول: ﴿ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَيَجْعَلَهُمْ آيَةً وَيَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ ، وأشار بيده نحو الحجاز، ثم قرأ ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَحُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾

• شروط نجاح الإشارة:

الخطيب الموفق هو الذي يضع الإشارة والحركة في محلها ومجالها، لذلك فلاصابتها شروط نذكر منها ما يلي:

- (١) أن يقتصد في استعمالها قدر الإمكان، فلا يبالغ ولا يتكلف ولا يكذب.
- (٢) أن تتفق مع المعنى فتبهط وتهدا وتسرع وتثور تبعاً له.
- (٣) ألا تسبق الكلام وألا تأتي بعده.
- (٤) أن يكون حكيماً في استعمالها. مناسبة لما ينطق به لكي تجيء الإشارة جزءاً متمماً للكلام موضعاً له، وحتى يكون في استعمالها دقيقاً وموفقاً.

* * *

موضوع الخطبة الدينية

موضوع الخطبة في الإسلام وميدانها هو نفس الميدان والمجال الذي يعمل فيه الإسلام، والمجال الذي يعمل فيه الإسلام هو الحياة الأولى والآخرة جميعاً، فليس عمله هو الحديث عن الجنة والنار أو الحياة والموت كتلك الكلمات التي مل الناس سماعها، وكتلك الخطب المقروءة من بعض الدواوين والتي يسمعاها الناس في بعض مساجد القرى، ثم يخرجون لا يدرون ماذا قال خطيبهم إلا حديثاً عن الجنة أو النار، أو يخرجون وقد حفظوا ما قاله لكثرة ما تردد عليهم، أو كتلك الخطب التي تتناول النوح على الحياة والتخويف بالموت على نحو مطلق، فإن هذا لا يحصل في القلوب إيماناً بالله ولا توحيداً ولا يفيد معرفة خاصة ولا يذكر بالآئنه، ولا يبعث النفوس على محبته جل شأنه والشوق إلى لقائه، فيخرج السامعون وهم لا يدرون من الخطيب شيئاً إلا أنهم يموتون وتقسّم أموالهم ويبلى التراب أجسادهم !

كما أن موضوع الخطبة في الإسلام ليس هو الحديث عن هذا الجانب من الحياة أو ذاك فقط وإغفال الآخر. لا. إن موضوع الخطبة في الإسلام هو تلك المعاني الواسعة المحيطة بالحياة الأولى والآخرة معاً، المتحدثة عن الدنيا والآخرة والجسم والروح والسلم والحرب والإنسان والجماعة، وكل المعاني المفصلة لكافة الأحكام في شتى شئون الحياة.

ومن تأمل خطب الرسول ﷺ وخطب أصحابه وجدها كفيلاً ببيان الهدى والتوجيه وذكر صفات الله جل شأنه وأصول الإيمان الكلية والدعوة إلى الله وإحصاء نعمه وسرد نعمه التي تحببه إلى خلقه، وذكر أيام الله والأمر بشكره وذكره، فينصرف السامعون وقد أحبوه وأحبهم. فالإسلام والحمد لله واسع جداً وفيه مجال للقول الكثير.

وبالجملة.. ففي الإسلام نظام شامل لكل مرافق الحياة "فيه الأحكام التي تنظم سلوك الناس في كل ما يصدر عنهم من أعمال عبادات على تعددها ومعاملات على تنوعها وتخالفها، وقد استقصى الفقه الإسلامي الشئون الاجتماعية وبينها

حتى دخل مع الرجل بيته وحكم بينه وبين زوجته، فبين ماله عليها ومالها عليه وفصل ما عسى أن يقع بينهما من خصومة وحكم بين الرجل وولده وبينه وبين نفسه حتى بعد مماته بين تقسيم ميراثه، ودفنه وقبره ثم أوصى بإيتامه خيراً، وبين كيف يوصى على أولاده وقدر ما يوصى به، وكيفية الحجر على السفية كل ذلك لينتظم أمر الحياة وليعيش المسلم عيشة منتظمة يتفرغ معها لإعداد الزاد ليوم المعاد، ولما كانت هذه الأحكام صادرة عن الوحي كان في التزامها والعمل بها سعادة البشرية أفراداً وجماعات. وكل ذلك تحقيقاً للقصد من رسالة محمد ﷺ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (١).

نذكر هذا الكلام لنبين كيف أن الإسلام شمل كل الحقائق التي يحتاج إليها العالم في شئونه جميعاً وصدق الله حيث يقول: ﴿مَا قَرَّبْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَيْكَ يُرْسَلُ يُحْشَرُونَ﴾ (٢) وذلك هو موضوع الخطبة والتوجيه في الإسلام.

مصادر الخطبة الدينية

ينبغي أن يستمد الخطيب عظته ونصحه من النصوص الشرعية والعلوم الكونية والفضائل النفسية. والخطابة الإسلامية الرشيدة هي التي تستمد من القرآن الكريم والسنة المحمدية والنصوص الصحيحة وتسير في ضوئها. ولنا في هدى النبي ﷺ خير قدوة وأفضل توجيه..

فكثيراً ما كان يخطب بالقرآن الكريم. وفي صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة ما أخذت ﴿قَدْ وَالْقُرْآنُ الْمَجِيدُ﴾ إلا عن لسان رسول الله يقرأها كل يوم جمعة إذا خطب الناس.

وكان عمر يخطب أحياناً بسورة النحل: ﴿أَفَئِنَّ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْبِلُوهُ﴾.

فالقرآن الكريم والسنة الشريفة والنصوص الصحيحة وأقوال السلف الصالح هي المصادر التي ينبغي أن تستمد منها الخطبة الإسلامية. وتلك هي الروافد الدافقة التي تمد الخطابة في الإسلام. وهي الينابيع الصافية التي ينبغي أن يجعلها

(٢) سورة الأنعام الآية ٣٨.

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٧.

الخطيب مصدر روائه وغذائه، ولا غرو فمن معانى القرآن الكريم تنفجر ينباع الخطابة الصحيحة. والخطابة المستمدة منه هي وقود النهضة الرشيدة وضياء أمة تريد أن تستقيم على دربها، إذ إن أسلوبه في خلق الضمير الزاكي والفكر الراقى وتقويم السلوك المعوج يكفى ويغنى ويشفى ويهدى للتى هي أقوم ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(١).

كما أن للقرآن قدرة فذة على قيادة الناس إلى الحق وعلى استثارة أفكارهم واستنشاء مشاعرهم والسمو بهم إلى كل ما هو خير.

ولم يكن الوعاظ والمذكرون في صدر الإسلام يذهبون إلى أبعد من الكتاب والسنة في توجيهاتهم ونصائحهم. وكان عماد الخطبة أو العظة في عصرهم إما القرآن وإما السنة وإما كلام مستمد منهما يدور في فلكهما ولا يتجاوز محيطهما.

وعندما نتأمل الخطب المروية لنا عن الخلفاء الراشدين نراها محكومة بتلك المعانى التى أشرنا إليها - وسنأتى بنماذج منها فى الباب الأخير - وهى خطب فتحت لنفسها طريق الخلود والبقاء. فمازالت قائمة يرجع إليها الدعاة حيناً بعد حين ليقبسوا منها ويأتنسوا بهديها ويأخذوا منها القوة. بل ويتعلموا منها فنون الكلام.

وعلى الخطيب أن يحاول جهده فى أن تكون خطبته محكومة بهذا الإطار السابق، ولا مانع من الاستئناس ببعض القصص القصيرة والصحيحة خاصة للعامية التى تحب هذا النوع من القول وتطير وراء أصحابه وليكن ذلك بحذر وبقدر.

وفى القرآن الكريم والسنة المطهرة متسع كبير فى هذا المجال قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كُنَّا فِي فَصْصِهِمْ عِبْرَةً لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَئِن كُنْتَ تُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

أما المتفقون فى هذا العصر فقد يضيقون أو يتبرمون من هذا الاتجاه، وإنما هم يحبون العبارة الرقيقة والأداء العالى فى أسلوب محكم؛ نظراً لارتفاع مستوى الثقافة وكثرة إطلاع الناس هؤلاء على ما تطبعه المطابع من ألوف الكتب.

(٢) سورة يوسف الآية ١١١.

(١) سورة الإسراء الآية ٩.

والذى نوصى به الخطيب أن يكون عماد درسه أو خطبته القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة وأقوال السلف الصالح، وعدم الجرى وراء القصص المسلية والإسرائيليات الموضوعية، فإن ذلك موضع نقد شديد وشكوى كثيرة من الجمهور للخطيب. ثم إنه ينبغي ألا يغفل جانب الخطورة التى تعود على المسلمين من رواية الإسرائيليات، نظرا لما تحويه من أباطيل وخرافات نسب بعضها إلى الرسول ﷺ والصحابة والتابعين، وذلك من حيث إنها تفضى إلى الآتى: (١)

(١) إنها تظهر الإسلام بمظهر الدين الذى يعنى بالترهات والأباطيل التى لأصل لها. كما أنها تصوره فى صورة دين خرافى يعشق الخرافات ويطير وراءها. ويعنى بأوهام من صنع الخيال.

(٢) إن رواية مثل هذه الإسرائيليات تكاد تصرف الناس عما هو أهم فى دينهم ودنياهم وتشغلهم بالتوافه والصغائر عن البحث فى الأحكام والتفاصيل المهمة، وعن التدبر فى آيات القرآن والانتفاع بعبه وعظاته وقصصه الحق، مع أن شغل الناس بمثل هذه الأمور مضيعة للوقت فيما لافائدة من معرفته، ويعتبر البحث عنه عبثا محضاً.

(٣) إن مثل هذه الروايات لاتذكر هكذا. وإنما تنسب إلى بعض الصحابة والتابعين. الأمر الذى يسىء إلى سمعة صحابة أجلاء وتابعين كرام. ويهز الثقة فيهم. ولعل نتيجة ذلك ما كتبه أبو رية فى كتابه "أضواء على السنة المحمدية" ونال فيه من أمثال الصحابى الجليل أبى هريرة وطعنه فى روايته وعن توثقه مما جعل العلماء يتصدون له ويردون عليه (انظر السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى لمصطفى السباعى. ودفاع عن السنة للدكتور محمد أبو شهبة).

(٤) إنها تشوش على عقائد العامة وأفكارهم لعدم تمييزهم بين الحق والباطل، والحق أن النفس إن لم تكن لها حصانة من علم صحيح وبصيرة نيرة تميز بها بين الحق والباطل كثيرا ما تتطلى عليها تلك الأعاجيب وتسلم فى بساطة ويسر للغرائب ولو كانت أكاذيب.

(١) انظر ابن الجوزى الواظع ص ٣١٧/٣٢٠ "رسالة دكتوراه للدكتور جمعة الخولى.

وكثيرا ما يثير الدهشة ما يرويه بعض العوام من قصص فيها هدم للسنن الكونية. بل وهدم لأركان الدين وأحكامه وترويج للفسق والفجور ودعوة إلى أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا.. وكثيراً ما أستاء مما أسمع من أحاديث تتسبب لرسول الله ﷺ أو أحد صحابته رضى الله عنهم لمجرد هز الثقة أو الإساءة لأحد هؤلاء ويهولنى ما بها من خرافات وأوهام.. ولذا فقد أوصينا ونوصى الخطيب أن يسير فى نسج خطبه على نور القرآن الكريم والهدى النبوى الشريف وأن يتجنب الجرى وراء الخرافات والأحاديث المجهولة الأصل أو المدسوسة، وأن يتأكد من مصادره قبل أن يلقى بعباراته فى قلوب السامعين قبل أسماعهم.

* * *

إعداد الخطبة

من المهم جدا أن يعد الإمام خطبته ويحضر موضوعه حتى يكون كلامه مركزا ومنظما، فيفيد جمهوره ويرضى ضميره. ويحاول أن يكون موضوع الساعة ومشكلة الأسبوع حتى يربط بين الدين والحياة.

يفكر في موضوعها ويرتب عناصرها في نقاط.

ثم يشرح تلك النقاط مستندا على القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال السلف من الأئمة والصالحين وأعمالهم، ويستخلص النتائج التي تناسب الظروف الراهنة والأحوال الطارئة، وهو بذلك يشد انتباه المصلين إليه ويجعلهم ينتظرون موعد خطبة الجمعة بفارغ الصبر، فيومه الناس وتقصده الجماهير من كل مكان مما هو معروف من سيرة بعض الدعاة في ماضينا وحاضرنا.

أما إذا لم يعد خطيب الجمعة موضوعه بدا وكل الدلائل تشير إلى أنه شارد الذهن. مشتت الفكر فيشرق ويغرب ويأتى بأفكار من هنا وهناك وبكلام أكثره غير منطقي يشيع فيه التناقض والاضطراب، وكثيرا ما ينسى شيئا وتغيب عنه أشياء، فيكرر نفسه ويطول الكلام ويمضى الزمن بدون جدوى ويدب إلى السامعين الملل والتنمر، وكل ذلك نتيجة اعتماد الخطيب على الكلام المرتجل الذي قد يخطر على بال صاحبه في اللحظة والتو دون سابق تحضير.

• كيفية إعداد الخطبة:

وإذا لم يكن من إعداد الخطبة بد. فكيف نعدّها؟ ذلك ما نفضله في الآتي:

هب أنتى مقدم على الحديث مع مسئول كبير لى عنده حاجة فماذا أفعل.. إنه على - والحالة هذه - عدة أمور:

- (١) أن أستبين الموضوع الذى سأتكلم به إليه وأحدد غايتى منه تحديدا كاملا.
- (٢) أن أرتب مقدمات الحديث وأساليب النقاش مستعدا للرد على كل ملاحظة يمكن أن تثار.
- (٣) أن أكون مرنا ولبقا فى كل ما يوجه إلى من كلمة أو رأى أو معارض.
- (٤) أن أستعد بالأسلوب السهل والكلمات ذات المعنى الأكثر تعبيرا عن الفكرة.

وهكذا.. وعلى ضوء هذا من الممكن أن تعد الخطبة.

وأنه من الخير دائما أن يخلو الإنسان إلى نفسه قبل الخطابة أو الكلام، ثم يذهب في هدوء يتصور نفسه قائما في الموقف الذى سيكون فيه، ثم يشد عقله ومواهبه لمواجهة هذا الموقف واحتمالاته.

فبقدر إتقان أساليب الخطابة والاستعداد لها والمران عليها فى "البروفات" مرانا كافيا يكون النجاح المرجو.

تأليف خطب الجمعة وإلقاؤها

أما عن كيفية إعداد خطبة الجمعة فهذا ما نقوله فى الآتى:

على الخطيب أن ينظر فيما حوله من الأمور المهمة والأحداث اليومية التى تشغل الناس فى أحاديثهم وتدور على ألسنتهم ولها آثار بينة بينهم، ثم يتخير من هذه الحوادث أهمها ويجعلها موضوع خطبته ومدار عظته، ثم يستحضر ما ورد من الآيات والأحاديث الصحيحة فى الموضوع الذى اختاره. ويفكر إن كان موضوعه التنفير من الرذيلة فى الأضرار التى تنشأ عنها، ويتوسع فى فهم هذه الأضرار ويستحضر الألفاظ والأساليب التى تخص موضوع خطبته.

فإن كان موضوعه مثلا "التنفير من شرب الخمر" يفكر فى الأضرار الصحية والمالية والخلفية والاجتماعية فوق ما أعد الله من العقاب لشارب الخمر^(١).

وإن كان موضوعه دعوة إلى عمل نافع يفكر فى آثاره الجليلة ومنافعه الجزيلة فى الدنيا، وما أعد الله فى الآخرة من النعيم لفاعله.

فإذا أراد - الكلام فى حث الناس على تكوين جمعية للبر بالفقراء. ففكر فى آثار هذا العمل فى نفوس الفقراء وفى معيشتهم وحالتهم الاجتماعية، وفى أن هذا يصرفهم عن التفكير فى سلب أموال الناس وإقلاق راحتهم فتستقر النفوس، ويستتب الأمن، وتصفو الحياة ويفكر فى الثناء الذى تنطق به الألسن على هؤلاء الخيرين. والذكرى للإنسان عمر ثان، ثم يفكر فى أن هذا العمل يجعل الأغنياء والفقراء متحابين تشيع بينهم المودة والمحبة متضامنين، يشعر كل واحد منهم بحاجته للآخر، ويتذكر ما أعد الله للمحسنين من جزيل الثواب فى الدنيا والآخرة.

(١) انظر مرآة المرشدين للشيخ على رفاعى.

وليكن تفكيره في جو من الهدوء وصفاء النفس وطهارة القلب والنية الصادقة والإخلاص في الدعوة إلى الله وما أجمله - قبل التفكير - .

أن يطهر قلبه ولسانه بقراءة ما تيسر من كتاب الله تعالى ويستلهمه المعونة والتوفيق ولا ينتظر الخطيب من الناس ثناء ولا شكراً، ولا يؤمل منهم أجراً بل أجره على الله رب العالمين، ولا يأبه للحاقدين والحساد، بل يسير في طريقه داعياً إلى الله ناصحاً لعباده، قدوته إمام الخطباء رسول الله ﷺ الذي نزل على لسانه ﴿وَمَا تَشْتَهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ (١).

وبهذا نرى أن هناك أركاناً ثلاثة لا بد للخطيب من رعايتها:

(١) موضوع الخطبة أى "عنوانها".

(٢) المادة العلمية التى تقوم عليها الخطبة.

(٣) صياغتها النهائية.

ولتسهيل الأمر عليه: فإنه ينبغي له أن يقسم الخطبة إلى عناصر وفقرات مترابطة، ثم يستحضر هذه العناصر، ويستحضر فى نفسه أساليبها والعبارات التى تؤدى بها.

ويجب على الخطيب أن يجعل كلامه فى الخطبة الثانية امتداداً لمضمون الخطبة الأولى فى عبارات موجزة وأسلوب سهل.

ومن العيب أن يلتزم الخطيب فى الخطبة الثانية خطبة يكررها كل أسبوع لا يحد منها ولا فائدة للناس بها. حتى أن - البعض تعود أن يقرأ على الناس عبارات ملوا سماعها وحفظوها من كثرة التكرار وتركوا التفكير فيها.

أما إذا شرح الموضوع الذى يريد الكلام فيه فى الخطبة الأولى ورأى أنه لاجمال فى الثانية لجديد يضاف فإننا نرى الاكتفاء فى الخطبة الثانية بالديباجة التى تتضمن الثناء على الله ثم الدعاء المطلوب للمؤمنين والمؤمنات. ويكفى فى الديباجة مثلاً أن تكون على هذا النحو:

(١) سورة يوسف الآية ١٠٤.

الحمد لله موفق العالمين. وأشهد أن لا إله إلا الله ولي المتقين. وأشهد أن محمدا رسول الله الصادق الأمين، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين. ونختار صيغ الدعاء الآتية.. اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا. واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر. اللهم إنا نسألك موحيات رحمتك، وعزائم مغفرتك. والعصمة من كل ذنب. والغنيمة من كل بر، والسلامة من كل إثم لاتدع لنا ذنبا إلا غفرته، ولا ديننا إلا قضيته ولا حاجة هي لك رضا إلا قضيتها ويسرتها يا أرحم الراحمين، ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.

ولا بأس من الدعاء بالتوفيق والرشد لحكام المسلمين، فقد قال الحسن البصري لو كانت لى دعوة مستجابة لوهبتهما للسلطان، فإن الله يصلح بصلاحه خلقا كثيرين. نسأل الله أن يوجهنا وجهة الخير، ويرزقنا الإخلاص فى القول والعمل.



كيفية اختيار موضوع الخطبة

الأساس في هذا أن يتخير الخطيب موضوع خطبته ويمعن التفكير فيه، مبيّنا المنافع والمضار المتعلقة به. ثم يستحضر الآيات والأحاديث المرتبطة به.

أما الآيات فالقرآن فيه تبيان كل شيء. وسنجد فيه ما يشفي صدور المؤمنين. وأما الأحاديث فقد سهل سلفنا الصالح علينا أمرها فدونهاها في كتب الصحيح، وهناك بعض الكتب المساعدة على ذلك مثل:

(١) كتاب رياض الصالحين للنووي، وكل ما فيه أحاديث صحيحة مقبولة.

(٢) كتاب الترغيب والترهيب للمنذرى.

(٣) كتاب مفتاح الخطابة والوعظ للعدوي، وهو الذي جمع فيه لكل موضوع ما يناسبه من الآيات والأحاديث، وقد وفر عليك كثرة البحث والتنقيب ولاغنى للتصدي للخطابة الدينية عنه.

وإليك بعض النماذج التي تفيد في صناعة الخطب ليسير من يريد من الخطباء على منوالها، ثم هناك باب كامل في أشهر خطب الرسول ﷺ والصحابة من بعده، سيأتي فيما بعد، لنتزود من الهدى المحمدي النوراني الذي نهم منه صحابته الأجلاء رضوان الله عليهم، والله الموفق للرشاد والمهيم للصواب.. وعلى الله قصد السبيل.

مثال لإعداد إحدى الخطب الدينية

أثر الجهاد في الإسلام

الآيات:

- (١) ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآثِ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ (١).
- (٢) ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (٢).
- (٣) ﴿فَلْيَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ﴾ (٣).
- (٤) ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ (٤).

الأحاديث:

- (١) من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق.
- (٢) والذي نفس محمد بيده لو ددت أن أغزو في سبيل الله ثم أقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل.
- (٣) من قاتل في سبيل الله فوق ناقة وجبت له الجنة.
- (٤) عيان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله.

التحليل العلمي لهذا الموضوع

- (١) الإسلام دين عزة وكرامة. وشرع لتحقيق ذلك الجهاد.
- (٢) مشروعية الجهاد في الإسلام.
- (٣) بالجهاد انتصر الحق على الباطل وعلت كلمة المسلمين.
- (٤) الله مع المجاهدين بالنصر أو الشهادة.
- (٥) الإعداد المادى والروحي طريق النصر.

(٢) سورة للتوبة الآية ٢٤.
(٤) سورة الأحزاب الآية ٢٣.

(١) سورة التوبة الآية ١١١.
(٣) سورة النساء الآية ٧٤.

(٦) صفات الجندي المسلم.

(٧) ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ فَعِزَّةٌ فَاتَّبِعُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١).

(٨) سبيل الجهاد الحق.

الصوغ الخطابي للموضوع

الحمد لله الذي جعل الجهاد بابا من أبواب الجنة. من أحجم عنه ألبسه الله ثوب النذل والعار، سبحانه ضمن للمجاهدين في سبيله الأجر والغنيمة في الدنيا، وفي الآخرة منازل الأبرار مع النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما. وأشهد أن لا إله إلا الله أعز الإسلام بالجهاد ورفع مناره. وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي بلغ الرسالة وأدى الأمانة وجاهد في الله حق جهاده وكان أحب شيء إليه أن يرزقه الله الشهادة في سبيله لمنزلتها من الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١)

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه والمجاهدين في سبيله إلى يوم الدين.

أما بعد. فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٢).

أيها المسلمون.. الإسلام دين عزة وكرامة شب منذ نشأته الأولى عزيز المكان نافذ السلطان، ولقد حفظ الحق وحماه من عبث المبطلين وقسوة الظالمين وأبى إلا أن تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، وأعز أهله وأمنهم في ديارهم ودينهم وكرامتهم. وشرع لتحقيق عزتهم ما يجعلها بنجوة من إذلال

(٢) سورة آل عمران الأيتان ١٦٩: ١٧٠.

(١) سورة الأنفال الآية ٤٥.

(٣) سورة التوبة الآية ١١١.

المسيطرين وقهر المتجبرين. ففرض الجهاد على القادرين من المسلمين وحثهم عليه ودعاهم إليه وأمرهم أن يعدوا العدة التي ترهب عدو الله وعدوهم. ورفع من شأن الجهاد في سبيل الله حتى جعله ذروة سنام الإسلام، فقال النبي ﷺ رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد.

فبالجهاد انتصر الحق على الباطل، وعلت كلمة الدين، وعز جانب المسلمين، فلم يتحكم فيهم عدو ولا يتهيمن عليهم مغير، وبالجهاد أمن الناس على نفوسهم وأعراضهم وأوطانهم وأموالهم وعقيدتهم. وبالجهاد ينال المسلمون أجرهم وغنيمتهم، وبالجهاد يعقدون مع ربهم أربح صفقة في حياتهم ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَدُّونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبِشِرُونَ بِالَّذِينَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١).

وقد روى البخارى ومسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: "الغدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها" وقال: "من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمه الله على النار" وقال: "عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس فى سبيل الله".

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِنًا يَوْغِطُ الْكُفَّارُ وَلَا يَنَالُونَ مِنَ عَدُوِّنَا إِلَّا كَيْبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلَا يُفْقِرُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٢). ولقد كان لتلك الوصايا الإسلامية أثرها الفعال فى نفوس المسلمين السابقين، وهم الذين اشربت قلوبهم محبة الله ورسوله، وتغلغل الإيمان فى قلوبهم، فصاروا يدافعون عنه بمهجمهم وأرواحهم. فلم يكدر رسول الله ﷺ يدعو إلى الجهاد حتى تسيل عليه الأودية بالمجاهدين يبيعون لله أنفسهم ويبدلون لرسوله أموالهم، فلا يتخلف عنهم إلا أولئك الذين عذروهم الله من الضعفاء والقاعدين، وإلا أولئك الذين لعنهم الله من المنافقين، وكانت روحهم المعنوية عالية جدا بفضل استهانتهم بالحياة وحبهم للشهادة فى سبيل الله. فكان الرجل منهم يهزم فى ساحة الوغى عشرة من

(١) سورة آل عمران الآيتان ١٦٩: ١٧٠.

(٢) سورة التوبة الآيتان ١٢٠: ١٢١.

الفرسان كلهم مثله وبنمو عمومته. وبالعكس كان الضعف والتخاذل حليف المشركين لكرهتهم الموت وحبهم للدنيا وطمعهم في متاعها الحقيق ولذتها المحدودة وحطامها الفانى. ولما سأل المقوقس رسله عن صفات الجندي المسلم قالوا.. رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة. فليس لأحدهم رغبة في الدنيا ولاتهمه. وإنما جلوسهم في التراب وأكلهم على الركب وأميرهم كواحد منهم ما يعرف رفيعهم من وضيعهم ولا السيد من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد. يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم. فقال المقوقس: لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأز الوها، ولا يقوى على قتال هؤلاء أحد.

أيها المسلمون.. بهذه الروح العالية والصفات المثالية استطاع المسلمون أن يحكموا عامر الأرض، وأن يبلغوا رسالة الله في طول البلاد والعرض، وأن يطاولوا عروش الأكاسرة والقيصرة ويصاولوا الجيوش الجبابرة حتى دانت لهم الأمم وخضعت لهم الرقاب. وما بلغ المسلمون غايتهم ولم يحققوا آمالهم إلا بفضل طاعتهم لله واستمسакهم بدينه واعتصامهم بحبله وصبرهم حين البأس، وإخلاصهم لله في الحرب، واستعانتهم بالله على الأعداء، واتحادهم وتناصرهم، فكان لهم من هذا كله قوة أقوى من الحديد وأحمى من النار وأشد على الأعداء من وقع السهام في غيبش الظلام. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَوَّجُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحَكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِجَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١﴾.

ولقد صرح بهذه الحقيقة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؓ لقائده سعد بن أبى وقاص، حيث قال: يا سعد أمرك ومن معك بتقوى الله فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم. فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون لمعصية عدوهم الله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم طاقة لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوتينا في المعصية كان لهم الفضل علينا، وألا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم

بقوتنا ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا، وإن أسأنا فرب قوم ساط عليهم من هو شر منهم.

أيها المسلمون.. هذا هو سبيل الجهاد الحق ودليل الوطنية المخلص. وما من أمة تعزز كفاحها بهذا المبدأ الصادق إلا قويت شوكتها وأرهبت أعداءها. وأن الكفاح المرير الناشب الآن بين العرب والصهيونية لا يد أن ينتهي بنصرة العدل ولعنة الظالمين، مصداقا لقوله جل شأنه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَنَ عَلَيْهِمُ إِلَى يَوْمِ الْفَيْكَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١) وروى البخارى عن رسول الله ﷺ أنه قال: "تقاتلون اليهود حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر فيقول يا عبد الله هذا يهودى ورائى فاقتله".

وسأل ابن مسعود النبى ﷺ أى العمل أحب إلى الله عز وجل.. قال الصلاة على وقتها، قال ثم أى: قال ثم البر بالوالدين. قال ثم أى. قال الجهاد فى سبيل الله.. رواه البخارى ومسلم.

صفات الخطيب أو الداعية الناجح

بعد أن تحدثنا عن الخطابة وعن أصولها، ومقوماتها، والخطبة الدينية وما تستلزمه، وعن كيفية إعداد الخطبة الدينية وبالأخص "خطبة الجمعة" ..

يقضىنا الحديث أن نتعرف على صفات الخطيب أو الداعية الناجح الذى يودى واجبه فى بصيرة. بشىء من التوضيح، - وقد تناولنا ذلك من قبل عندما تحدثنا عن الخطيب بصفة عامة- ولكننا سنحدد هذا أكثر ونتحدث عن صفات الخطيب الداعية إلى الله عز وجل. ذلك لأن الخطيب فى ضوء الإسلام هو الداعية الموفق.

فالداعية إلى الله عز وجل ليس مجرد خطيب يخطب الناس فيلهب مشاعرهم وإنما المراد به من يؤمن بفكرة، يدعو إليها بالكتابة، والخطابة، والحديث العادى والمحاضرة، والعمل الجدى فى سيرته العامة والخاصة. وبكل ما يستطيع من وسائل الداعية. فهو كاتب، وخطيب، ومحدث، وقُدوة يؤثر فى الناس بعمله وشخصيته.. والداعية أيضا طبيب اجتماعى يعالج أمراض النفوس، ويصلح

(١) سورة الأعراف الآية ١٦٧.

أوضاع المجتمع الفاسدة، فهو ناقد بصير.. وهو كذلك يشعر بأن دعوته حية فى أعصابه، متوهجة فى ضميره، تصبح فى دمائه، فتعجبه عن الراحة والدعة إلى الحركة والعمل، وتشغله بها عن نفسه وولده وماله.

وهذا هو الداعية إلى الله تعالى، الذى يحس إيمانه بدعوته فى النظر، والحركة والإشارة، وفى السمة التى تظهر على وجهه، وهو الداعية الذى ينفذ كلامه إلى قلوب الجماهير، فيحرك عواطفهم إلى ما يريد من أمر دعوته.

وليس معنى هذا "المهرج" الذى يصطنع الحماية ليلعب بمشاعر الجماهير لأنفه الغايات^(١).

وعلى هذا فالداعية إلى الله تعالى أو المرشد أو الخطيب الناجح هو الذى يتصف بكثير من صفات الفضل والكمال التى منها:

١- أن يكون عالما بما يقول، فاهما له على الوجه الصحيح. لأن الجاهل يفسد أكثر مما يصلح. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَقُولَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يفلحُونَ * مَتَّع قَلِيلًا وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(١).

وقال الحسن البصرى: "العامل على غير علم كالسائر على غير طريق، والعامل على غير علم يفسد أكثر مما يصلح".

٢- أن يكون عاملا بعلمه. وهذه ناحية مهمة لا يغفل عنها الداعية إلى الله تعالى، فكم من علماء جهابذة فى العلم لا ينتفع -غالبا- بكلامهم لأنهم فى ناحية، وعلمهم فى ناحية أخرى، مما يكون عقبة فى سبيل الإصلاح. وهيهات أن ينتفع بعلمهم، فإنهم قد فقدوا الرشد فى أنفسهم فكيف يرشدون غيرهم، قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾^(٢). وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "رأيت ليلة أسرى بى رجالا تقرض شفاهم بمقاريض من النار، فقلت من هؤلاء يا جبريل فقال:

(٢) سورة النحل الآيات ١١٦: ١١٧.

(١) تذكرة الدعاة للأستاذ البيه الخولى ص ٢٦، ٥.

(٣) سورة الصف الآيات ٢: ٣.

الخطباء من أمته الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون" (١). وقال الحسن البصرى: "الواعظ من وعظ الناس بعمله لا بقوله".

٣- أن يكون خبيراً بما يدعو إليه، لأن الدعوة إلى الله تعالى وتعليم وتربية.. لا بد فيها من الدراية بأصول القواعد التربوية، والأحوال النفسية، والجاهل بهذه الطرق يخفق كثيراً في مهمته، فقد يضر من حيث يظن أن يعتقد أنه ينفع (٢).

معنى هذا أن الداعية يسير في دعوته مسترشداً بهذه الآية الكريمة: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِّ لَهُمْ يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (٣).

٤- أن يكون الداعية عفيفاً يائساً مما عند الناس. بهذا يكون سيداً في قومه محبوباً لديهم. أما إذا تطلع إلى دنياهم أدى هذا إلى تحقيره وسقوطه في نظرهم، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رجلاً قال يا رسول الله أوصني وأوجز فقال: "عليك باليأس مما في أيدي الناس فإنه الغنى، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر، وصل صلاتك وأنت مودع وإياك وما يعتذر منه" (٤).

وقال الحسن البصرى: "لا يزال الرجل كريماً على الناس حتى يطمع في دينارهم، فإذا فعل ذلك استخفوا به وكرهوا حديثه وأبغضوه".

وقال أعرابي لأهل البصرة: من سيدكم؟ قالوا الحسن. قال: بم سادكم؟ قالوا احتاج الناس إلى علمه واستغنى عن دينارهم. فقال: ما أحسن هذا.

٥- أن يكون قوياً في بيانه، فصيحاً في لسانه. ولذلك قال تعالى على لسان سيدنا موسى - عليه السلام -: ﴿وَأَحْمَلْ عَقْبَةً مِن لِسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ (٥).

وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي هَكَوَيْتُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ (٦).

٦- أن يكون حليماً واسع الصدر. قال تعالى لإمام الداعين إلى الله: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأْتَفَضُّوا مِن حَوْلِكَ﴾ (٧).

٧- أن يكون الداعية شجاعاً. يقول الحق ولو على نفسه، فما بالك إذا كان

(٢) الدين العالمي ومنهج الدعوة إليه للشيخ عطية صقر ص ١٦٨ - ١٦٩.

(٤) رواه الحاكم وصححه.

(٦) سورة القصص الآية ٣٤.

(١) رواه ابن حبان في صحيحه.

(٣) سورة النحل الآية ١٢٥.

(٥) سورة طه الآيتان ٢٧: ٢٨.

(٧) سورة آل عمران الآية ١٥٩.

على غيره مهما كانت قيمة هذا الغير. قال ﷺ: "إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منهم" (١).

وعن أبي ذر الغفاري ﷺ: "أوصاني خليلي بخصال من الخير، أوصاني أن لا أخاف في الحق لومة لائم، وأوصاني أن أقول الحق وإن كان مرًا" (٢).

٨- أن يكون واثقا بالله تعالى فيما وعد به عباده المخلصين الصادقين ﴿يَتَابِعُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يُعْزِمَهُمْ وَيَبْتَئِنُّهُمْ﴾ (٣).

٩- أن يكون متواضعا، بعيدا عن العجب. قال ﷺ: "ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله" (٤).

١٠- أن يكون وقورا، كبير الهمة، صابرا، ورعا، بعيدا عن الشبهات، مخلصا في دعوته لله تعالى، عالما بأحوال من يدعوهم إليه عز وجل، إلى آخر هذه الصفات المتعددة التي ترجع كلها إلى ما ذكرنا (٥).

بعد أن عرفنا هذه الصفات الجيدة للخطيب أو الداعية الناجح لعل أحدا من الناس يسأل. وهل اكتملت هذه الصفات في خطيب أو داعية إلى الله مخلص؟

والجواب على ذلك: نعم. اكتملت هذه الصفات وغيرها في رسول الله ﷺ. وصدق الله إذ يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرٍ كَبِيرًا﴾ (٦).

وإذا اعترض أحد بأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان معصوما من الخطأ وليس أحد سواه تنطبق عليه هذه الصفات؟

حينئذ نجيب على هذا الاعتراض بأن هناك من الخطباء والدعاة إلى الله المخلصين الذين تربوا على هدى المصطفى ﷺ أمثال: الصحابة والتابعين، وتابعى التابعين، ومن صاروا على منوالهم إلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه.

(٤) رواه مسلم عن أبي هريرة.

(٦) سورة الأحزاب الآية ٢١.

(١) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد عن عبد الله.

(٣) سورة محمد الآية ٧.

(٥) هداية المرشدين للشيخ على محفوظ.

تطور الخطابة

لا بد لنا ما دمنا نطرقنا لموضوع "الخطابة في الإسلام" أن نلقى نظرة عابرة على تطور الخطابة عموماً، والعوامل التي أدت إلى هذا التطور حتى نعرف الأثر الكبير الذي تركه الإسلام في هذه الوسيلة المهمة من وسائل الدعوة إلى الله تعالى، وحتى ندحض ادعاء بعض المستشرقين الذين يرون أن - الخطابة العربية- أو الإسلامية كما نسميها انتقلت من مرحلة السذاجة والضعف إلى مرحلة اليقظة والقوة والترقى بفعل تداخل الآداب الأخرى فيها. خاصة الأدب اليوناني القديم.

ولو اقتصر هذا القول عليهم لهان الخطب، ولكن من المؤسف أن نجد بعض الباحثين من العرب يقولون بهذا الرأي مجازاة لهؤلاء المستشرقين.

• الخطابة قبل الإسلام:

بالبحث نجد أن الخطابة فطرية في الإنسان لا يخلو منها أى مجتمع من المجتمعات التي حفظ التاريخ آثارها من أقدم العصور وإلى يومنا هذا.

فإذا ما نظرنا - مثلاً- إلى أمة اليونان نجد أن فيها الكثير من البلغاء الذين يستطيعون تحريك الشعب إلى ما يريدون.

وكان هذا في أثينا في القرن الخامس قبل ميلاد المسيح - عليه السلام- وكان الناس حينذاك يجدون لذة في الاستماع إلى خطيب بارع يتحدث إليهم فى موضوع من الموضوعات المحببة إلى نفوسهم.

ولما جاء الدين المسيحى بعث فيها روحاً جديدة وقام الرسل بالتبشير فكانوا كلهم خطباء، إذ قيل لهم سيروا فى الأرض وعلّموا الأمم. على هذا قامت الكنائس على آثارهم. كما أن هذا الدين فى حاجة إلى إرشاد مستديم مما أدى إلى نبوغ بعض آباء الكنيسة فى فن الخطابة، وكان هذا سبباً فى ازدهارها.

ولكن سرعان ما تطرق الضعف إلى هذا الفن الخطابى بسبب انسياب بعض اللغات الغربية إلى اللغة اللاتينية التي كان يخطب بها الخطباء. كذلك وجود عدد

غير قليل من الخطباء الذين يتخذون هذا الفن وسيلة للكسب وجمع المال والهدايا، فنزلت بذلك عن مقامها السامى. (١)

ثم أخذت الخطابة تقوى تارة وتضعف تارة أخرى إلى أن جاء العصر الجاهلى الذى كان نصيب الشعر فيه أقوى من الخطابة بكثير، مما جعل أبو عمرو ابن العلاء يقول: " كان الشاعر فى الجاهلية يقدم على الخطيب لفرط حاجتهم إلى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم، ويفخم شأنهم، ويهول على عدوهم ومن غزاهم، ويهيب من فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم ويهابهم شاعر غيرهم فیراقب شاعرهم".

فلما كثر الشعر والشعراء واتخذوا الشعر مكسبة ورحلوا إلى السوقه وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر.

وإذا بحثنا عن الأسباب التى أدت إلى اشتهاار الخطابة فى العصر الجاهلى نجدها تتلخص فيما يلى:

الحمية الجاهلية. وشن الغارات فى المدافعة عن النفس والمال والعرض، والمفاخرة بالشعر والخطب فى الحسب والنسب وقوة العصبية، وشرف الخصال من الشجاعة والكرم والنجدة وحماية الجار وإياء الضيم وغلبة الأمية على العرب ونعذر طرق التواصل المنظمة بينهم وتفرقهم إلى قبائل مستقلة.. إلخ. (٢)

وإذا نظرنا فى خصائص الخطابة فى العصر الجاهلى نجدها تتلخص فى قصر الجمل، وعدم الاهتمام بالمقدمات والتزام السجع غالباً، وسذاجة الأفكار..

وكان من أشهر الخطباء فى ذلك العهد: قيس بن خازجة بن سنان خطيب حرب داحس والغبراء، وخويلد بن عمرو الغطفانى خطيب يوم الفجار، وقيس ابن ساعدة الأبادى خطيب عكاز، وأكثم بن صيفى.. إلخ.

وفىما يلى نذكر نموذجاً لخطبة لأحد هؤلاء وهو.. قيس بن ساعدة الأبادى. يقول فى خطبة له..

(١) الخطابة للدكتور نقولا فياض - طبع دار الهلال بمصر ١٩٣٠م.

(٢) مذكرة الخطابة، للشيخ على محفوظ - الطبعة الثالثة.

" يا أيها الناس اسمعوا وعوا. وإذا وعيتم فانتقعوا، إنه من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت. مطر ونبات. وأرزاق وأقوات. وآباء وأمهات. وأحياء وأموات. جمع وشتات. وآيات بعد آيات. إن في السماء لخبرا. وإن في الأرض لعبرا، ليل داج. وسماء ذات أبراج. وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج. مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون. أرضوا بالمقام فأقاموا. أم تركوا هناك فناموا. أقسم قس قسما حقا لا حنث فيه ولا إثما. إن لله ديننا هو أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه، ونبينا قد حان حينه. وأظلم أوانه. وأدرككم إبانة فطوبى لمن أدركه فآمن به وهداه، وويل لمن خالفه وعصاه. إلى أن قال:

فى الذاهبين الأول	ين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد	للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها	بمضى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى إلى لا	من الباقين غاير
أيقنت أنى لا مجا	لة حيث صار القوم صائر

نلاحظ فى أسلوب هذه الخطبة: السجع وقصر الفواصل، وتخيير اللفظ^(١) وضرب الأمثال، واستنتاج العبر من مصارع الطغاة وظواهر الكون.. إلخ.. كما هو الأسلوب الغالب فى العصر الجاهلى.

• الخطابة فى الإسلام:

عرفنا فيما سبق أن اليونان والرومان، والرسل فى المسيحية، وأهل الجاهلية كل هؤلاء وغيرهم لم يستطيعوا أن يخرجوا من الخطباء النابهين مثلما خرجت هذه البيئة العربية فيما يقرب من أربعين سنة بعد أن تشرفت بالإسلام. ولا أن يرتفعوا بخطابتهم إلى هذا المستوى عددا وبتوسعا وتنوعا فى أفانين القول

(١) صبح الأعى فى صناعة الأنا للفتشندى ج ١ ص ٢١٢، الأغانى لأبى الفرج الأصفهاني ج ١٤ ص ٤٠، وتاريخ الأدب العربى للأستاذ أحمد حسن الزيات - الطبعة السادسة.

وازدهارا في مجال النمو، وأن هذه الدعوة الدينية كما أحدثت انقلابا لا مثيل له في المجتمع البشري قد أحدثت في مجال الخطابة انقلابا كبيرا. فنبئت على حواشيتها خطابة دينية في صورها المختلفة، وأخرى في السياسة والحكم والحرب والاجتماع وجدل الأحزاب والطوائف كأقوى وأروع ما تكون الخطابة، على حين لم تكد النهضات القديمة والحديثة على اختلاف مواطنها ومنابعها إلا خطابة من نوعها بخلاف النهضات الدينية، فإنها حققت الكثير من وسائل الدعوة إلى الله تعالى وفي مقدمتها الخطابة.^(١)

والخطابة في صدر الإسلام لها المكانة العليا والمقام الأسمى، وكان الخطباء ينتفون من جواهر الألفاظ أعذبها وأظرفها وأحلاها، ومن المعاني أرقها وأدقها وأعلاها، ومع ذلك فقد كانوا يضمنونها آيات من كتاب الله لتزداد حلاوة وتجذب الناس إليهم، حتى أنه كان يعاب على الخطبة أنها ليس فيها آية من كتاب الله.

وبلغت الخطابة زمن الخلفاء الراشدين عنفوان شبابها، فإن القرآن الكريم بما اشتمل عليه من أساليب رائعة أعانهم على الخوض في عباب البلاغة، ولم تكن الخطب في مجتمعهم تنقيد بوقت معين، بل كلما دعت الحاجة إلى القول اجتمعوا فألقيت عليهم الخطبة استنارة أو وعظ أو تنكيرا أو إعلان أو امر أو ما إلى ذلك من أغراض، وكان الخطيب إذا قال في أمر ما سحر الألباب وفتح بآيات الوعظ ما لا يفتح بالسيوف المرهفة يؤلف من فرقة ويسكن من فتنة ويقطع المنازعات ويزيل الأحقاد.

وبشيء من المقارنة نجد أن الخطابة في عهد الإسلام قد امتازت عنها في عهد الجاهلية وغيرها بأمور تنحصر فيما يأتي:

- ١- أخذها وجهة دينية في مثل خطب الجمع، والأعياد، والحج، والوعظ والإرشاد والتعليم وغير ذلك مما يستلزمه نشر الدعوة الدينية.
- ٢- اتباعها خطة سياسية في مثل تأليف الجماعات والأحزاب وتوحيد الكلمة والحث والتحريض على القتال لإعلاء كلمة الله بحالة تغاير ما كانت عليه العرب في الجاهلية في ذلك.

(١) الخطابة في صدر الإسلام للدكتور محمد طاهر درويش - ج ١ ص ١٨١ - ٤٤٢ مطبعة دار المعارف ١٩٦٥م.

٣- صفاء ألفاظها وسهولة عباراتها ومتانة أساليبها وتجنبها سجع الكهان وقلة القصد فيها إلى سرد الحكم القصيرة الدقيقة لمناسبة وغير مناسبة، خلافا لما كانت عليه خطباء الجاهلية.

٤- قوة تأثيرها ووصولها إلى سويداء القلوب وامتلاكها للوجدان والشعور بما رقق القلوب الغليظة القاسية وأسأل الأعين الجامدة.

٥- محاكاتها أسلوب القرآن الكريم في الإقناع واستمدادها من آياته حتى اشترط بعض الأئمة اشتغال الخطبة على شيء منه.

٦- بداعتها بحمد الله عز وجل والثناء عليه، والصلاة والسلام على النبي وآله وصحبه. هذا ولم تسعد العرب بكثرة الخطب والخطباء مثل ما سعدت به في العصر الإسلامي الميمون.^(١)

• عوامل تطور الخطابة في الإسلام:

تطور الخطابة في الإسلام عوامل متعددة نلخصها فيما يلي:

١- من أهم العوامل التي أدت إلى ازدهار الخطابة في العصر الإسلامي هو: ظهور رسالة المصطفى ﷺ التي أخرجت العالم من الظلمات إلى النور ومن الضلال إلى الهدى. فإن الدعوة إلى الدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقمع الفتن وردع البدع، وتحميس الجند... كل ذلك من أغراض الخطابة. وكان لها من آيات القرآن الكريم وحججه معين لا ينضب ومدد لا ينفد^(٢)... والدليل على ذلك ما ذكره القرآن الكريم من أسلوب خطابي في بعض الأحيان على نمط لم يألّفوه فهو يقصد إلى التأثير والإقناع معا بطريقة أجبرته على أن يتتبعوا خطاه ويسيروا على منواله مثل ما قاله تعالى لبنى إسرائيل: ﴿يَبْنَئِي أُمَّتَهُ يَلِ أَدْرُكُوا بُعْتِي أَلَيْسَ أُثَمَّتْ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أَوْفٍ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَارُهَبُونَ﴾^(٣).

﴿وَمَا أُمْنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْرَوْا بِمَا بَيْنِي وَمِنَا قَلِيلًا وَإِنِّي فَاتِتُونَ﴾ * وَلَا تَلْسِنُوا أَلْحَىٰ بِالْبَطْلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾^(٤).

(١) سبيل الحكمة في الوعظ والخطابة للشيخ على محفوظ ص ٥٢ وما بعدها.

(٢) تاريخ الأدب العربي للأستاذ أحمد حسن الزيات - الطبعة السادسة.

(٣) سورة البقرة الآية ٤٠.

(٤) سورة البقرة الآيات ٤٣: ٤١.

إلى أن قال تعالى: ﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ تَأْمُرُوا بِالْكَفْرِ وَقَدْ كَانَكُمْ قَرِيبًا مَنِ تَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ تُعْزِمُونَ، مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(١).

فإذا التفتنا إلى هذه الآيات الكريمة نجد أن فيها الأسلوب الخطابى، ويشتمل على مقدمة للموضوع الذى يراد شرحه، ثم عرض لهذا الموضوع، وأخيرا الختام الذى يذكر أهم الحقائق التى لا بد منها للمدعو.

ليس ذلك فقط بل نجد القرآن الكريم يعلمهم فن القول. وهذا يتضح لنا فى خطابه المباشر لرسوله ﷺ، فقد خاطبه فى كثير من المواطن بقوله "قل" التى ذكرت فى القرآن الكريم ٣٣٢ مرة. مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾^(١)، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٢)، ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾^(٣)، ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾^(٤)، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا إِلَىٰ مَا نَادَيْتُم بِهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^(٥)، ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾^(٦).

٢- العامل الثانى الذى كان سببا فى تطور الخطابة فى الإسلام يظهر فى استجابة النبى ﷺ لمنهج الدعوة إلى الله تعالى، كما جاء فى القرآن الكريم حيث يقول تعالى لحبيبه ومصطفاه: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَحَدِّثْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٧).

وهذه الدعوة كثيرا ما تكون عن طريق الخطبة الدينية التى يقوم بها الداعية إلى الله تعالى الموفق فى أداء رسالته. ويكفى هذا الداعية فخرا وتبها ما قاله البارى تبارك وتعالى فى حقه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾^(٨).

لذا لما قرأ الحسن البصرى هذه الآية الكريمة فقال: "هذا حبيب الله. هذا ولى الله. هذا صفوة الله. هذا خيرة الله. هذا أحب أهل الأرض إلى الله. أجاب الله فى

(٣) سورة يونس الآية ١٠٨.

(٢) سورة الأعراف الآية ١٥٨.

(١) سورة البقرة الآية ٧٥.

(٦) سورة العنكبوت الآية ٥٠.

(٥) سورة النور الآية ٥٤.

(٤) سورة النمل الآية ٦٩.

(٩) سورة فصلت الآية ٣٣.

(٨) سورة النحل الآية ١٢٥.

(٧) سورة الزمر الآية ٨.

دعوته. ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته. وعمل صالحا في إجابته. وقال إننى من المسلمين. هذا خليفة الله".^(١)

وهذا كله تمثل في شخص المصطفى ﷺ القدوة.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرٍ﴾^(٢).

وبلغ من اقتداء الصحابة عليهم رضوان الله تعالى بالرسول في الخطبة أنهم كانوا يفتتحونها بالتحميد والتمجيد لله، والصلاة على رسول الله ﷺ، يطلقون على الخطبة التى لم تبدأ بذلك "البتراء".^(٣)

وسنرى هذا بوضوح في خطب النبي ﷺ والصحابة.. إن شاء الله فى الباب الأخير.

٣- الصراع بين الدعاة إلى الله تعالى وبين المعاندين من الكافرين وغيرهم، فكل منهم يريد أن يجذب الآخر نحوه عن طريق الإقناع والاستمالة. وهذا اعتمد إلى حد كبير على الخطابة.

وحتى نعرف مدى الإصرار الذى كان من المعاندين فى بقائهم على كفرهم، بل فى جذب المسلمين إليهم نذكر هذا الحوار بين الرسول ﷺ وبين عتبة ابن ربيعة الذى كلفه قومه ليعرض على الرسول ﷺ أمورا لعله يقبل بعضها وينصرف عن هذه الدعوة. فقال عتبة للنبي ﷺ: يا ابن أخى، إنك منا حيث قد علمت من البسطة فى العشيرة والمكان فى النسب وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقته به جماعتهم وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آياتهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنتظر فيها. لعلك تقبل منها بعضها.. فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع.

قال: يا ابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان الذى يأتيك

(١) انظر: الحسن البصرى من عمالة الفكر والزهد والدعوة فى الإسلام - رسالة دكتوراه بمكتبة كلية أصول الدين.

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢١.

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٩٤ طبعة مصطفى الحلبي.

رئيا تراه لاتستطيع رده، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال نعم قال: فاسمع مني، قال: افعل، فقال: ﴿حَمْرٌ * نَزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كَتَبْتُ فَصَلَّتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(١)، وأخذ الرسول يقرأ حتى وصل إلى السجدة فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك.

٤- الأفكار الجديدة التي عمل الإسلام على بثها بين المدعويين فتقبلها هؤلاء باهتمام بالغ، لأنها كانت تخريهم دائما وتأخذ بأيديهم إلى سبيل الرشاد.

وعلى سبيل المثال قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾^(٢)، فهذه دعوة من الله تعالى إلى عباده للتفكر في ملكوت الله عز وجل والتطلع إلى هذا الكون الفسيح.. حتى يصل الإنسان عن هذا الطريق إلى الإيمان الصادق والحياة الصحيحة التي يجب أن يحيها الإنسان.

٥- الاقتباس من القرآن الكريم..

يقول الجاحظ: "إن الخطبة إذا لم توشح بآيات من القرآن الكريم سميت "شوهاء"^(٣) ويقول أيضا: "كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحقل وفي الكلام يوم الجمع أي من القرآن، فإن ذلك ما يورث الكلام البهاء والوقار والرقعة وحسن الموقع"^(٤).

وفي آثار الصحابة - عليهم رضوان الله - الكثير من هذه الأمثلة مثل ما قاله أبو بكر الصديق ؓ في إحدى خطبه: "الحمد لله، أحمده وأسأعينه وأسأغفره وأؤمن به وأتوكل عليه، وأسأتهدي الله الهدى، وأعوذ به من الضلالة والتردى، من يهدي الله فهو المهتدي، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا، فأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيى ويميت وهو حي لا يموت، يعز من يشاء ويذل من يشاء. بيده الخير وهو على كل شيء قدير..^(٥)

(٢) سورة الغاشية الآيات ١٧:٢٠.

(٤) المرجع السابق ج ١ ص ١١٧.

(١) سورة فصلت الآيات ١:٣.

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ج ٢ ص ٦.

(٥) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ١٣١.

٦- من العوامل التي أدت إلى تطور الخطابة في الإسلام وعلوها مبدأ الحرية الصحيحة الذي أقره هذا الدين الجديد. ويتجلى هذا المعنى في أول خطبة خطبها أبو بكر الصديق عقب توليته للخلافة الإسلامية، حيث قال: "أيها الناس، إني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن رأيتموني على حق فأعينوني، وإن رأيتموني على باطل فسدوني. أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم".^(١)

من هذا القول لأبي بكر الصديق يتبين لنا أن الإسلام قد ترك حرية النقد البناء لإصلاح المجتمع، لا فرق في ذلك بين عظيم أو حقير.. مما حمل الكثير من الصحابة وغيرهم على أن ينطقوا بكلمة الحق. وبهذا ازدهرت الخطابة وأنت ثمارها.

٧- من العوامل كذلك التي أدت إلى تطور الخطابة في الإسلام مبدأ "الشورى" الذي دعا إليه هذا الدين الحنيف في ضوء ما قاله تعالى: ﴿وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ يَتِيمَ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾^(٣).

ومن ذلك قال أبو بكر الصديق يوم السقيفة: "أيها الناس: نحن المهاجرون، أول الناس إسلاماً، وأكرمهم حسباً، وأوسطهم داراً، وأحسنهم وجوهاً، وأكثر الناس ولادة في العرب، وأمسهم رحماً برسول الله ﷺ، أسلمنا قبلكم. وقد منا في القرآن عليكم، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَٰئِكَ مِنِّي الْأَنْصَارُ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾^(٤)، فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار إلى أن قال: فنحن الأمراء وأنتم الوزراء. لاتدين العرب إلا لهذا الحى من قريش. فلا تنفسوا^(٥) على إخوانكم ما منحكم الله من فضله".^(٦)

٨- ما حدث بين المسلمين بعد مقتل سيدنا عثمان ؓ من فتنة كادت تؤدي إلى ضياع وحدتهم واجتماع كلمتهم. لولا عناية الله تعالى بعباده المؤمنين. هذه الفتنة نشأ عنها الأحزاب والفرق المختلفة. مما حدا بكل واحد منهم يريد

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٠٣. (٢) سورة الشورى الآية ٣٨. (٣) سورة آل عمران الآية ١٥٩.
(٤) سورة التوبة الآية ١٠٠. (٥) تنفسوا: نفس عليه بخير (كفرج) حسده ونفس عليه الشيء نفاسه لم يرها له.
(٦) تاريخ الطبرى ج ٢، عيون الأخبار ج ٢ ص ٢٣٤.

أن يؤيد وجهة نظره، فلم يجد سوى الخطابة وسيلة يصل بها إلى غرضه، وقد امتلأت كتب الأدب والتاريخ والفرق بالكثير من هذه الخطب المتنوعة.

وعلى سبيل المثال حينما شخص الإمام على - كرم الله وجهه - من المدينة إلى البصرة، وخطب في أتباعه، فحمد الله وصلى على النبي وذكر الجاهلية وشقائها والإسلام والسعادة، وإنعام الله على الأمة بالجماعة، وذكر أن ما حدث جره على الأمة قوم طلبوا هذه الدنيا، " وحسدوا من أفاءها الله عليه وأرادوا رد الأشياء على أدبارها"^(١). وقال ﷺ: "سيروا إلى أعداء الله والسنن، سيروا إلى بقية الأحزاب وقتلة المهاجرين والأنصار، إن الله أكرمكم بدينه، وخلقكم لعبادته فانصبوا نفوسكم في أداء حقه... إلخ"^(٢).

وقال معاوية بن أبي سفيان ﷺ: "أيها الناس، عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم. إن الجنة لا يرحل من أوطنها ولا يهرم من سكنها، ولا يموت من دخلها، فابتاعوها بدار لا يدوم نعيمها، ولا تنصرم همومها، وكونوا قوما مستبصرين في دينهم مستظهرين بالصبر على طلب حقهم.. إلخ"^(٣).

٩- ما قدمه الإسلام من الحث على الزهد الصحيح وغير ذلك من الأفكار المختلفة التي عالجها هذا الدين الحنيف.

كل ذلك كان بوسيلة الخطبة التي ازدهرت بسبب هذه الصراعات المختلفة.

• أهم خصائص الخطابة في الإسلام:

بعد هذا العرض الموجز لتطور الخطابة في الإسلام يجدر بنا أن نتعرض لأهم الخصائص التي امتازت بها الخطابة في رسالة المصطفى - عليه الصلاة والسلام- ونوجزها فيما يلي:

أولاً: طول الخطبة غالباً بخلاف العصر الجاهلي، فقد كانت الخطبة فيه قصيرة.

ثانياً: تقسيم الخطبة إلى مقدمة وعرض للموضوع وخاتمة.

(٢) تاريخ الطبري ج ٥ ص ١٢٨.

(١) الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ٣٦، تاريخ الطبري ج ٥ ص ٣٨.

(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه ج ٢ ص ١١٠.

ثالثاً: عرض الخطبة قائم على الترتيب المنطقي الصحيح الذي يعتمد على استخلاص النتائج من مقدماتها.

رابعاً: الأفكار المتجددة في الخطابة الإسلامية.

خامساً: تدعيم الخطبة بآيات من القرآن الكريم، وأحاديث للنبي ﷺ وآثار السلف الصالح - عليهم رضوان الله تعالى -.

وسنرى فيما يلي نماذج متنوعة من الخطب الإسلامية الأصيلة التي يجب أن نسير على منوالها ونهتدى بهداها، وفي مقدمة هذه الخطب أول خطبة للنبي ﷺ في المسجد بعد أن هاجر من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.. والله الموفق.

* * *